ضيق الفرص، والهجرة إلى الفردوس!! (*)

لفتنى وأنا أطالع سيرة الملاح أحد منفذى العمليات الأخيرة فى سيناء (مايو ٢٠٠٦) أنه ابن أجير زراعى كابد الأمرين والأسرة معه، حتى أتم لابنه تعليمه وتخرج فى كلية الحقوق وبتقدير جيد.. الصورة مشرقة، والأمل كبير فى أن يحقق الفتى لنفسه ولأسرته ما تطلعوا إليه عبر هذه الرحلة من الكدح والمعاناة.. مضى الابن الشاب يبحث عن وظيفة يمسك بها خيط الأمل لتحقيق بعض طموحه الذى تولد مع رحلته، ويسد ولو بعض حاجة الأسرة التى عانت وتحملت وقترت على نفسها لتتيح له أن يتعلم وأن يتوج هامة الأسرة وهامته بما تمنوه له ووعده المجتمع من سنوات به، إلاّ أن الشاب لم يعثر على وظيفة، ولا فتحت له المحاماة - مع ضيق ظروفها الحالية! - كوّة أو متنفسا يفرج به كربته ويكسر الطوق الذى حاصره بالعجز واليأس والإحباط وانغلاق كل أبواب الأمل!!..

ماذا يفعل؟! لم يجد إلاّ أن يرتد إلى ما وجد عليه أباه، فطفق يعمل مثله أجيراً زراعيا لدى صاحب أرض، بيد أنه لم يعد كأبيه، فقد تعلم ما لم يتعلمه، وتطلع بحكم ما تعلمه ومناه المجتمع به إلى ما لم يُتح لأبيه آن يتطلع إليه إلاّ فيه!!.. فى ابنه!! والابن ما إن ظن نه لاحت له طاقة نور يخرج بها من الزقاق حتى ارتد حسيراً إلى حيث يعمل أبوه.. ولكنه تغير ولم يعد يرضيه ما أرضى أباه، والدنيا بدورها تغيرت، ومع انفتاح الناس على أبواب ومسالك لم يكن لهم بها عهد، تغيرت قيم وتبدلت نظرة الناس، ولم يعد أحد يعطى قيمة إلاّ

---

* ٢٠٠٦/٦/٢٩.

لصاحب مال ونفوذ وهيلمان، أو صاحب منصب تعارف الناس على أن به ترتبط القيمة وتتولد المكانة أوالجاه!!

أتخيل أن الفتى حاول أن يتلاءم مع حالة الضرورة، وأن يطوى شقاء الإحساس باللاقيمة بعد أن ظن أنه لامس السماء أو يكاد!.. ولكن القيم المجتمعية المتغيرة، وما تبثه وسائل الإعلام بغير التفات إلى المتبدلات والمستجدات، لا تدع له فرصة لاجترار وضعه الذى أخذ يتحول معه ومع آلاف غيره من شبابنا إلى مصدر سخط وإحباط وتذمر، وإلى طاقة مختزنة من الغضب الممزوج بلواعج الإحباط وكراهة المجتمع الذى لم يفسح له فرصة.. أعطاه " الأمل" و "الطموح" ثم عاد فسحب من أمامه "الفرصة "!!

خطير حتى النخاع أن لا نلتفت إلى الأثر المدمر لإغلاق" الفرصة "أمام "الأمل" الذى زرعناه!!!

هل التفت أحد إلى محاذير زرع وتكريس الأمل ثم "سحب الفرصة "؟! هل تأمل أحد ونقب وحلل فى أثر ضياع "الفرص" بعد زراعة "الأمل "؟!.. هل تفهم أحد مقدار اليأس والإحباط الذى يتنامى فى هذه النفوس والمسالك التى يأخذها إليها سخطا وضيقا وتذمراً واعتراضا وتمردا وكراهة للآخرين ومقتا للمجتمع كله؟!..هل تفطن أحد إلى أثر انسداد الدنيا فى عيون متطلعة إلى غد، ووخزات تنامى شعورها باللا جدوى واللافائدة واللافرصة واللا أمل فى شق الدرقة واستيجاد "فرصة" فى الحياة الدنيا قبل أن تتآكل سنوات العمر ويأتى المصير المحتوم؟!.. ماذا بعده؟! ماذا يعنى للإنسان إذا كان واقع الحياة الدنيا مليئا بهذه التعاسة وكل هذا المرار؟!..

نعرف أن النزوع إلى الماضى متنفس للهروب من الواقع الحزين الموئس، ونعلم أن النفس تتوق إلى متنفس يفرج كربتها حين تضيق الدنيا أمامها على سعتها، وأن الأديان كانت ولا تزال سقوفا حانية

تحمى التعساء من الانهيار، وتقوى الصابرين على صبرهم، وتفتح لهم من أبواب الصبر والعزم ما يشد من أزرهم، بيد أنه عند هذه العتبة تشتد نفوس وتضيع أخرى. لا يأتى الضياع من مجرد الإخفاق فى الإمساك بحبل الدين الصحيح وما يبثه ويضيفه ويعمقه فى صفحة وجدان الآدمى، وإنما يأتى الضياع من فقدان البوصلة التى تلفت مع قيم الدين إلى معطيات الصبر الفاعل المريد القادر على تغيير قتامة الواقع مهما كان مظلما أو مراً.. حالة اليأس عند هذه "العتبة" باب واسع إلى صيد سهل يأتى النفوس من خارجها ومن داخلها أيضا.. هناك تلقف يجرى على الواسع لهذه الحالات البائسة القانطة الضائعة!.. كل عوامل الإحباط تشدها إلى البديل السهل أو الذى تتصوره سهلا: الفردوس الموعود فى الحياة الأخرى هو" البديل " الذى يكفكف مرارة وبؤس الواقع فى الحياة الدنيا.. لا بأس، ولكن البأس يأتى من تحوير وتحويل "السقف الدينى" إلى نصل حراب تصيب الدين نفسه فى بنيه فتنحرف بهم عن معناه، وتأخذ النفوس الضائعة إلى واحة متمناة تتحوصل فى الفردوس الواجب الهجرة إليه عوضا عن الدنيا الفانية المرة الموئسة.. ليس على النفس لا أن تهرب من هجير هذه الحياة الدنيا إلى باحة الفردوس الموعود حيث النعيم المقيم بدلا من الشقاء المحتوم، وحيث العدل بدلا من الظلم، وحيث القيمة عوضا عن العدمية واللاقيمة، وحيث تغسل النفس اليائسة كل ما كبلها من هموم وشقاوات وتعاسات وأحزان!

عند هذه "العتبة" تنجرف النفوس من داخلها، أو بفعل فاعل أو فاعلين من خارجها، فتغلق باب الدنيا بما فيها، وتقرر ألا تكتتب إلا فيما يرام فى الحياة الأخرى!. هذا الاكتتاب الضرير الذى يعجل مفارقة الدنيا ويتسارع إلى استقبال الآخرة، ويهيئ لليائسين المحبطين التعساء الضائعين أن بينهم وبين "الفردوس" الموعود خطوة. هذه الخطوة التى تداخلها تحريفات ومعتقدات وتوجيهات مريضة تهيئ

للساخطين المحتقنين المضللين أن الطريق إلى"الفردوس" يتمثل فى القنابل والألغام والمتفجرات التى تحصد أرواحاً بريئة!.. وما أكثر ما يقال للمضللين من تعلات وتخريجات لإباحة ما لا يباح، وإساغة الخلط الضرير - فكلٌ يبعث على نيته!! - بين الفعلة الآثمين، وبين الأبرياء.. ويمضى التضليل بالمضللين حتى يختم على الأبصار والبصائر، فلا ترى أن نصال الحراب موجهة منا إلينا، وأن الإصابات تضرب بأيدينا فى قلوبنا وأبنائنا وحياتنا واقتصادنا وبنائنا وتأخذنا بعيداً بعيداً إلى حيث الدمار التام والإهلاك والهلاك !!!